العمل

للأستاذ الدكتور مصطفى كمال وصفى
مستشار مساعد بمجلس الدولة

« أهدى هذه المقالة الى روح والدى .. فقد كان يحفزنى دائما الى العمل »

لا شك أن العمل النافع المنتج الخالص لوجه الله هو من أهم القربات الى الله ، وأعظم العبادات ، وان للعاملين عند الله أجر كبير .

وقد حض الله على العمل بقوله : « **وقل وعملوا** » وقوله : « **والذين آمنوا وعملوا الصالحات** » وحض على السعى فى الحياة والضرب فى مناكب الارض والانتشار عقب صلاة الجمعة سعيا وراء الرزق . كما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للمتعبد ، أن أخاه الذى يسعى ، أعبد منه . وقال : « ان من الذنوب ذنوبا لا يكفرهن الا السعى على الرزق » أو كما قال ، .. وقال : « غفر الله لرجل بات وهو كال من عمل يده » أو كما قال .

كما جاء فى آثار الصالحين وكبار المتصوفين أنهم كانوا يحضون على العمل . فقد اشتهر أكثرهم بأسماء صناعاتهم كالحلاج والخواص والبقال (أستاذ ابن الفارض) والرفاء وغيرهم . وأثر عن امامنا الشاذلى أنه قال لاحد مريديه ، وكان يريد أن يهجر عمله ليتصوف : ان الطـــريق ليس معناه هجر العمل بل معناه الاخلاص فيه . وقول الامام القشيرى : ان التوكل مناطه العمل . فلا يقال للقاعد أنه متوكل ، بل يصح أن يقال ذلك عن المقدم العامل .

***

والعمل اذا كان لوجه الله كان عبادة خالصة له . ويكون القـــائم به عابدا متحققا بقول الله : « **وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون** » . فليست العبادة هى النسك الدينية فحسب ، بل ان العبادة قسمان :

أ – عبادة مجردة ، وهى القيام بالنسك والشعائر كالصـــلاة والذكر واخراج الزكاة والصيام والحج .

ب – عبادة عملية ، وهى السعى على الرزق وتحقيق المصالح العملية ، وهى لا تقل فى أهميتها عن العبادة المجردة .

ولذلك فلا يفهم قول الصوفية أن ينقطع الانسان الى العبادة ، على أن ينقطع عن الدنيا وأسبابها ، والامتناع عن العمل اكتفاء بالخلوات وما اليها فهذا فهم خاطىء ، ومن أجله ثار الذين لم يفهموه على المتصوفين وظنوهم

يدعون الى العقم وعدم الانتـــاج . مع أن الانسان يكون عابدا فى عمله ، وليس فى انقطاعه وتجرده فحسب . وقد استعاذ الرسول عليه الصـلاة والسلام من العجز والكسل .

***

وعلى ذلك يتحقق للانسان معنى الانقطاع للعبادة والتفرغ لها ، متى قام بعمله باخلاص ولوجه الله وحده . فاذا كان التاجر يبيع وهو ينوى ببيعه أن يوفر للناس حاجاتهم ويقضى لهم مطالبهم ، ثم يوفر لنفسه ولاهل بيته الرزق الحلال ، كان عابدا خالصا ليله ونهاره ، عمله عبادة ، وراحتـــه استجماما للعمل عبادة . ونومه عبـــادة . وتفريجه عن نفسه بأسـباب التسلية المشروعة عبادة . لانه يتقوى بذلك على عمله الطيب الصالح . وربما كان عند الله أعبد من المنقطع للتنسك كقول الرسول عليـــه أزكى الصلاة والسلام .

وليس ثمة ما هو أصلح للنفس وأحسن لراحتها وعلاجها من العمـل . فهو علاج نفسى صائب ، وتقويم عظيم لهـــا . فالعمل يطهر النفس من أدران الحقد والحسد ، ويطرد عنها الوساوس . فالعامل المجد يكون دائما مشغول بعمله عن أحوال الناس وعن النظر الى عيوبهم وتلمس أخطائهم والتكدر بأفعالهم . ولا يجد من الفراغ ما يعقد به لنفسه الامور ، ويقلب لها الحقائق . كما أنه لنشاطه واجتهاده لا يشعر بما يشعر به القاعدون من مرارة الخيبة وضئالة النفس بسبب العجز ، مما يحملهم على الحقد على الناس وحسدهم بلا مبرر . كما أنه عادة يصيب الثروة والنعيم فيكون راضى النفس قرير العين قانعا بما أعطاه الله ، فيورثه ذلك مقـام الرضا بالحال ويمكنه من المساهمة فى الخير بالانفاق على نفسه وعلى أهله وعياله وعلى أوجه الخير . فيصيب أجرا على أجر وخيرا على خير .

أما المتكاسل القاعد بلا عذر ، فهو كالماء الآسن . خبيث النفس والطوية وان تظاهر بالطيبة استدرارا للشفقة وتصيدا للفتات . فتمتلىء نفسه بالعقد وتفيض بأسباب الالتواء فيكون عدوا لنفسه وللناس ، محاربا لله ورسوله فيما يحبانه لهذا العالم من العمار واقامة المصالح .

وشرط العمل أن يكون خالصا لله . ولا يكفى أن يكون نافعا للمجتمع. فاذا تصدق غير المؤمن لم يكتب له ذلك عملا صالحا . واذا بذل العـــالم علمه لقصد السبق العلمى وحده لم يكن ذلك عملا صالحا يجـزى به عند الله . لانه لم يبذله لله بل بذله عبادة لنفسه ولسمعته . أما اذا أقامه لله فله به الثواب العميم . فشرط قبول العمل هو الايمان لقوله تعالى : « **ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن** » وقوله : « **والذين آمنوا وعملوا الصالحات** » أما ظهور المصالح على يد غير المؤمنين فهـــو من المقدورات التى لا يثابون عليها ، ومثله كمثل سقوط المطر . اذ لا تثاب السحابة على أمطارها .

واذا كان العمل لله كان حائزا لارفع المقاصد . فالقاضى مثلا قد يحسن الحكم حتى يقال عنه أنه قاض متمكن . فعمله ليس لله ولكن رياء لنفسه ، أو يحسنه حتى يرضى عنه الحكام فعمله أيضا غير صالح ، وان صادف الحق والصواب . ولكن اذا بذله للحق وحده ، وبقصد اتمام المصلحة فى ذاتها لله كان عمله عبادة قائمة . وساعة منه خير من عبادة سبعين عاما . وذلك ولو أغضب ذوى الشوكة والنفوذ .

والعمل فرض كفاية على الأمة كلها . فالأمة تحتاج لمن يعالج مرضاها . ولذلك فقيام الطبيب بهذه المهمة نيابة عن الذين لا يحسنون هذا العمل فيه سد لحاجة المجتمع الى الطبيب وابراء لهم من اثم اهمال هذا المرفق . وكذلك حاجتهم الى المدرس أو الى القاضى أو التاجر أو الصانع . فهؤلاء جميعا يقومون مقام المحتاج لهذه الخدمة التى لا يحسنها . وبذلك يتقسم العمل فى المجتمع ويختص كل واحد بعمل ويقضى حوائج الناس فيه ، ويقضون هم حوائجهم عنده ، فيتعاونون على البر والتقوى .

وكلما زادت كفاية المرء زاد عمله وزادت حاجة الناس الى خبرته ، وعند ذلك يجب عليه ألا يضن على الله والناس بما أتاه الله من فضله . والا كان بخيلا شحيحا ومخالفا لقانون الله « وانفقوا » ويكون من الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله .. فليس البخل بالمال . بل بكل ما يملكه الانسان من وسائل وامكانيات . واذا زاد عمل الانسان زاد ثوابه . ولذلك فلا يجب عليه أن يتضجر من كثرة العمل أو يتبرم به . بل عليه أن يحمد الله على ذلك ولو لم يزد فى رزقه . فمادة العمل كالحقل الذى يجنى منه الثواب ، وكلما اتسع حقله أو تلاحق نضج ثمره كلما كان ذلك خيرا له . أما التعب والنصب فالله كفيل بأن يمده بالعون والمجهود . ولولا عون الله ما أمكنه أن يحرك ساكنا . **فاليد التى تعمل هى يد الله . والفعل صادر من الله . وكفى الانسان شرفا أن تنفذ ارادة الله وبركته خلاله . فلا يكون ممسكا لفضل الله مانعا أن تنفذ هذه البركة خلاله . بل عليه أن يترك نفسه ويستجيب لله ويكون آلة طيعة لارادته وانفاذ مشيئته .**

غير أنه أحيانا ، قد يختار الله العبد فى مقام التجريد ، فيحرمه وسيلة الارتزاق ووسيلة العمل فلا يكون أمامه الا العبادة المجردة . وليس لنا أن نعترض على هذه الفئة المختارة . فقد أقام الله العباد فيما أراد . وانما على كل منا أن يعمل بأقصى طاقته وجهده ما استطاع لذلك سبيلا . « **وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون** » .

الرفاعى : مصطفى كمال وصفى